

الفصل السابع

النصح : منظور فيجوتسكي مستمراً

الفصل السابع

النصح : منظور فيجوتسكي مستمراً

عمليات الاستدخال تلك لا تحدث بمعزل عن غيرها. إنها تتبثق خلال التمدرس أو التمهّن apprenticeship مع الوالدين، والمرشدين، والناصحين عن بُعد... عندما تنجح تلك الأعمال التعاونية فإن المبتدئ يتطوّر نحو الطلاقة، ويتعلّم كيف يفكّر الخبير والعالم. وذلك التعاون في الوقت نفسه يُحدثُ تجديداً للفرد الحاذق ولاستخدام المعرفة المشتركة لتطوير ذاتية المبتدئ. مثل هذه التفاعلات، من وجهة النظر الفيجوتسكية، تُعدّ أساسية لنقله كي يصبح خبيراً مفكراً (Joho-Steiner, 1997, p. xxiii).

لقد كانت رحلتنا عند تدوين هذه الخبرة الفيجوتسكية أصيلة نحو التحوّل الاصلاحى. فقد استخدمنا لغتنا وأفكارنا لبناء معرّفٍ بشكل تعاوني. تعلّمنا المشترك تعرّض لتأثيرات كبيرة من عددٍ من السياقات الاجتماعية، الثقافية، التاريخية المتكوّنة. وقمنا بالتفكّر والكتابة والقراءة في داخل منطقة النمو التقريبي. فعبور مثل هذا المسار ولّد لدينا سؤالاً مفاده: ما الجديد عن فيجوتسكي؟ التمدرس يقع في قلب فكرة فيجوتسكي عن التعلّم والنمو. مصطلح التمدرس أدى بنا إلى النصح كامتداد طبيعي لنظرية فيجوتسكي.

لم يحدث لنا أن عايشنا مثل تلك العلاقات مع بعضنا ومع المحيطين، لكن ذلك حدث في علاقاتنا مع المدارس ومع الجامعات. المشاركة، والتعاون، ودراسات الانضباط البيئي، والصلاات فيما بين المدرسة والمجتمع، والتوصّل لحل للمشكلات جميعها أمور لا غنى

عنها للتربية في عالم اليوم. ونظنه حان الوقت المناسب كي نتحدث عن فكرة النصح أو الإصلاح عبر العدسة المقرّبة لفيجوتسكي للبحث عن إجابات تشكّلت بواسطة تلك العمليات التعاونية. لقد أتينا جميعاً من إرث في الغالب يُقدّس العمل الفردي. إلا أنه، ومن الواقع العملي فإن قابليات الفرد للعمل مع المحيطين تؤدي به إلى النجاح. وفوق ذلك، فإن طريقنا في تحقيق النجاح ربما يكون وعرّاً أو سلساً اعتماداً على الملابس الملازمة لذلك الطريق الذي نسلكه، تفاعلاتنا مع الغير قد تعيننا أو تعيقنا في عملنا، وكذا الحال مع الفرص المتاحة لنا ونحن نشق ذلك الطريق. وكجزء مُكَمَّل لجعل عملنا ناجحاً فيما له صلة بكوننا متقبّلين لما يُصادفنا، ونحن محتفظون برؤيتنا للأمر وفق بعدها النسبي، وأن نكون مثابرين ومرنين للعمل نحو ما نهدف إلى تحقيقه من التعليم المستمر.

وسنقدّم فيما يلي أنموذجاً يوضّح لنا تلك الأفكار فيما له علاقة بالتعلّم والنمو والنصح. مثل هذا الأنموذج يوسّع ويوحّد منظور فيجوتسكي عن التعلّم والنمو. لقد اتبعت خطتنا هذا المثال منذ أن التيقنا في أول لحظة، على الرغم من كوننا لم نكن على وعي به منذ البداية. Cultural Competency for Trans Formative Education.

الافتقار الثقافي لتربية تحويلية

تحاول امرأة أمريكية من أصول أفريقية في الثانية والعشرين من عمرها وتدعى Olivia الانضمام للجامعة، والحصول على درجتها العلمية في تخصص التعليم المتوسّط في إحدى الجامعات الكبرى، التي يدرس بها طلاب وطالبات ذوو أصول أنجلو- أمريكية في الأساس. طموح هذه الطالبة يتجاوز أي رغبة لها لأن تصبح معلّمة. لم يسبق لأحد من عائلتها في حقيقة الأمر أن عمل معلّماً، ولم يحدث أن تخرّج أحد من عائلتها في جامعة. معلّمتها في الصف الثاني أسرت تفكيرها في سنوات خلون، وأفتعتها بأنها طالبة ذكية وأن في مقدورها أن تحصّل ما تروم تحقيقه. لقد كانت تلك المعلّمة Givehand ذات بصيرة وسحر، وهي التي أسست لمثل هذا الشعور بالثقة لدى الطالبة منذ أن قرّرت في الصف الثاني أن تكون على شاكلة معلّمتها مبكراً.

لقد كانت رحلة Olivia في دراستها الجامعية موفّقة إلى حد ما. حيث تحصّلت على الدرجات المطلوبة للانتساب لكلية التربية. إلا أنها أخفقت في دخول الامتحان المُتطلّب

في البدء للالتحاق بالمواد الصفية المتقدمة لإعداد المعلمين. لم تستطع هذه الطالبة أن تستمر في برنامجها، وبدا لها أنها لم تتمكن من الوصول لهدفها كي تصبح معلمة. أعطت لنفسها فصلاً آخر لكي تجتاز الامتحان المقرر أو أن عليها ترك الجامعة للبحث عن مجال آخر في حياتها.

كانت جالسة على منضدة في كلية التربية وهي محطمة نتيجة للعهد الذي أخذته على عاتقها محاولة أن تمتصّ شناعة الموقف الحالي الذي تمر به، عندما لاح أمام ناظرها البروفيسورة Kindersley، وكان عمرها لا يتجاوز (45) عاماً وهي من أصول أنجلو-أمريكية، كانت تقتنص فترة راحة من عملها المتواصل، وأمامها أكوام من الأوراق التي لا تبدو لها نهاية على مكتبها. سألتها البروفيسورة بلطف إن كان كل شيء على ما يُرام، واستقصت منها معلّمتها إن هي بحاجة إلى أي مساعدة منها. وقامت الطالبة بشرح ما تُعانيه من جراء خطب ألمّ بها. فما كان منها إلا أن دعته إلى مكتبها وقاما بالإعداد للقاء لمساعدة الطالبة Olivia أن تجتاز امتحانها المطلوب.

حدث أن التقتا بعد ذلك لأسابيع. مع أن الطالبة لم تنجح في الامتحان في محاولتها اللاحقة، وعادت لتخبرها مرة أخرى، طلبت منها البروفيسورة أن تُعيد المحاولة وشجعتها في القيام بإعادة الكرّة. اجتازت الطالبة الامتحان في المرة الثانية. وبدأت رحلة الدراسة كي تتأهل معلمة. لقد كوّننا صداقة معاً ومع إكمال الطالبة الإعداد لإنهاء المتطلّبات حتى تصبح معلمة، وأنهت بسرعة ما كانت مُطالبه هي به. حصلت هذه الطالبة على وظيفة معلمة خلال فترة خبرتها التعليمية، وبدأت مهنتها بكل اقتدار.

احتفظت البروفيسورة بعلاقة تشجيع لتلك المعلمة، وعلى الأخصّ في فترة السنوات الأولى في تمهّنها. ولقد كان من أفضل الموضوعات لديها تركيزها في مُحادثتها على أهمية إصلاح طلابها لحثّهم على تحقيق أهدافهم المستقبلية.

هذه العلاقة الشخصية المؤثرة تبين مدى الاقتدار الثقافي، الذي قابل الأفعال والقناعات، التي ظهرت من قبل الأشخاص الذين استجابوا وتفاعلوا بطريقة أصيلة مع أشخاص من لهم خبرات وثقافات مختلفة.

أنموذج Gullavan للاقتدار الثقافي

هذا الأنموذج الذي قدّمته Nancy Gullivan يتضمّن ثلاثة عناصر: مكوّنات، ومصادر، ومُخرجات. في الشكل (1.7) الذي نربطه بمبادئ فيجوتسكي في كل من التفكير واللغة والخبرة، السياق الثقافي. سنقوم فيما يأتي بشرح الأنموذج ثم ربطه بخبرتنا الإصلاحية.

المكوّنات الثلاثة لنموذج الاقتدار الثقافي لمقترحته Gullivan يشتمل على :

المعلومات (م)، وحرية الوصول (ح)، والفرصة لأداء عمل (ف). الناس في حاجة إلى المعلومات، ليعرفوا وليفهموا ذواتهم إن كان ذلك في الماضي أو الحاضر وفي قابل الأيام. وكل منا في حاجة إلى توافر شيء من الحرية أو القدرة في أن يصل إلى مواقع معيّنة: سواء كانت تلك المواقع مكانية، أو عاطفية، أو عقلية، أو اجتماعية، أو مهنية، أو مالية، أو ما شابه. وبالقدر نفسه يحتاج كل شخص منا إلى الفرصة أو إلى التغيير لتحقيق ما نقوم باختياره فيما يخص حياتنا أو مهنتنا.

جميع المكوّنات يجب توافرها لنموذج الاقتدار حتى يكون فاعلاً، على الرغم من أنها لا تحدث متزامنة ولا توجد هذه المكوّنات بالقوة ذاتها. كل المكوّنات الثلاثة تتمدّد وتتقلّص لحد بقية المكوّنين من أجل التغيير عبر الزمن. إضافة إلى ذلك فلا يجب أن يتقدّم أيّاً من المكوّنات على المكوّنين الآخرين. جميع المكوّنات الثلاثة تؤدي دوراً ذا أهمية، لكنها ليست بثابتة لتحافظ على التوازن الكلي.

المعلومات والإمكانية والفرصة: Information, Access, and opportunity

يؤسس النص من وجهة نظر فيجوتسكي لدورة المعلومات، وإمكانية الوصول، والفرصة. إن تلك الدورة تفتح الباب لكل من المبتدئين والأكفاء، ليعملوا وليتشاركوا وليعرفوا. فالذي يميّز فكرة فيجوتسكي النصحية أنها ليست تعمل في اتجاه واحد. كما أن تلك الفكرة تؤكد على العلاقة الديناميكية والتبادلية فيما بين التفكير واللغة والخبرة، وبهذا تعمل كل من المعلومات والإمكانية والفرصة معاً. وللمثيل على ذلك أسست Joan لدائرة لتتكوّن من كل من المعلومات والإمكانية والفرصة لعالم فيجوتسكي الذي يدور حول زميلتها Le منذ عقد مضي من الزمان. إلا أن المعلومات والحرية والفرصة غالباً ما تدفّقت من Le نحو Joan.

في أنموذج الاقتدار هذا، الذي لا يتعارض مع تفكير فيجوتسكي، حركة النمو لديه ليست بحدية linear؛ أي إن أحداً من المكوّنات سواء كان ذلك المكوّن معلومة أو إمكانية أو فرصة لا تتقدّم واحدة على الأخرى. فتلك المكوّنات الثلاثة تتداخل؛ أي إنها تتّسع وتضيق في تماسك. إنها تتفاعل مع بعضها بعضاً بشكل متزامن، وتتشكّل الأحداث في داخل أي واحدة من تلك المكوّنات.

ربما تكون الفرصة (ف) مناسبة كي يبحث عنها الفرد، لأن شخصاً آخر يمدّه، أو أن يبرز وجود كشفه للأشياء ببساطة متناهية وبالمصادفة serendipitously. فخلال أي فرصة تُتاح لنا، قد نعي الحاجة لمعلومات إضافية (م) أو/ وقد نقوم بتطبيق معلومات (م) متحصّلة سابقة. وبالقدر نفسه ربّما حينما تلوح الفرصة ندرك حاجتنا لإمكانية الوصول، أو أننا تمكنا من الوصول ومن عدد من الفرص المتاحة. كل تلك المكوّنات تعمل مشتركة وبالارتباط ببعضها بعضاً.

المصادر الكامنة ونتائجها القادمة Potential Sources and Consequential Outcomes

في أنموذج الاقتدار الثقافى المصادر الكامنة للمعلومات، وإمكانية الوصول، والفرصة التي تم عرضها في الشكل؛ لكونها ثلاث دوائر متداخلة تتمدّد وتتّسع بشكل ديناميكي لإحداث توازن مع بعضها. تشتمل المصادر الكامنة على:

- (1) الفرد أو الذات self.
- (2) فرد واحد أو أكثر one or many others.
- (3) كشف الحل بمصادفة (سرنديبية) serendipity، أو موهبة اكتشاف الحل بالمصادفة، وهو الشيء الذي يحدث خارج تحكّمنا أو تصوراتنا (انظر الشكل 107).

هذه المكوّنات للمصادر الكامنة وثيقة الصلة بفكرة فيجوتسكي بخصوص السياق الثقافى الذي يعتمد ما حققناه من معلومات وفرصة وإمكانية الوصول على العلاقات المتبادلة بين خبرات الذات والآخر (فرداً أو جماعة)، وموهبة اكتشاف الفرد للأشياء.

وعلى هذا الأساس نعي أهمية الذات والغير كليهما بوصفهما مصادر كامنة في نموذج الاقتدار الثقافى. قد يتشكّل المصدر المحيرّ في حدوث كشف الحل بمصادفة- صدفة أو في

حسن الطالع أو في التزامن غير المعد له أو في الحادث العرضي - كل تلك تظهر في الوقت المناسب وفي المكان الملائم ومع الأشخاص المنتقن في وقت تم الإعداد له بشكل مناسب. نحن قدّمنا، دون أدنى مجازفة، المعلومات المطلوبة وإمكانية الوصول وبوجود الفرصة المواتية دون علم منا بالحاجة أو بالضرورة لحدوث مثل ذلك الوضع في حينه. تعكس كل وقائنا الأهمية المفضلة للأنشطة السرديبية التي تشهد مساراتنا، وكذا التغلب على ما يعترضنا، وفي تزويدنا بالتدخلات في الوقت الملائم وهكذا، في الوقت الذي نستثير معلومات جديدة، وإمكانيات، وفرصاً.

بصرف النظر عن المصادر الكامنة (الذات والغير والحالة السرنديبية)، فقد يجد الفرد دعماً إيجابياً من تحقيقه هدفاً ذا صلة لما يحتاج إليه من معلومات أو لحرية الوصول أو للفرصة: الإذن بتحقيق ذلك (الإشارة الخضراء the green light). ويواصل الفرد بعدها العملية نفسها (معلومات إضافية، سماح، وفرصة).

والنتيجة الحتمية الثانية، أو ما يُرمز إليها (بالضوء البرتقالي the Orange light) عندما يصادف المرء موقفاً لا تكون فيه المعلومات والإذن بالدخول والفرصة متاحة، أو متحققة تماماً، وليست ممكنة الحدوث كما يعيها الفرد أو يُفيد منها، أو حينما لا يعزز الشخص بالكلية. فإن نتيجة كهذه تُحتم على الشخص أن يُعيد المحاولة بطريقة أخرى لتحقيق الهدف المنشود.

وحينما يعترض أحدنا نوع من الممانعة بحيث يوصله ذلك المنع إلى إيقاف محاولاته، تحدث ما نطلق عليها بالنتيجة الثالثة، يحدث له المنع (العلامة الحمراء the red light). وبغض النظر عن المصدر فإن على الفرد التوقّف، وأن يغيّر توجيهاته، وأن يسلك مساراً جديداً بالكلية. وفي هذه النقطة بالذات، ربما يهجر الشخص البحث بأكمله، ويعود مرّة أخرى إلى المسار الذي يعرفه جيداً. غايتنا من إيراد مثل هذا الأنموذج تشجيع بعضنا كمعلمين، وناصحين، ومتعلمين للتركيز على ما هو كامن لدى كل واحد فينا في سياقاته الثقافية التاريخية.

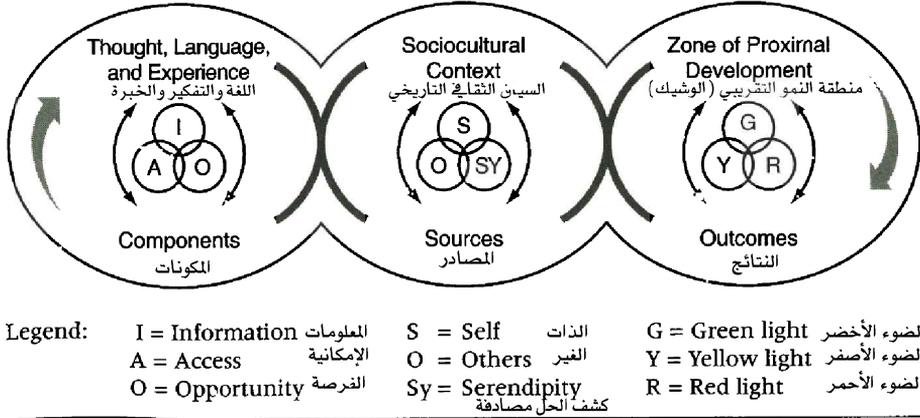


FIGURE 7.1 Gallavan Cultural Competencies Model in a Vygotskian Context.

وبإيجاز، فكما هو واضح في الشكل، نبدأ أولاً بالخبرة بمكوناتها الثلاثة، (المعلومات، وإمكانية الوصول، والفرصة)، وذلك من خلال فكرة فيجوتسكي عن كل من التفكير واللغة والخبرة معاً. تليها ثانياً، خبرتنا بالسياق الثقافي التاريخي من خلال المصادر المتمثلة في الذات، والغير، والسرنديبية في علاقات تفاعلية. وثالثاً، نتائج المخرجات التي توضح التحرك في داخل منطقة النمو التقريبي. كما حبك فيجوتسكي (1997) تلك العلاقة الديناميكية التبادلية لأفعال المعلمين، والمتعلمين، والبيئة الاجتماعية لكونها جوهرية للعملية التربوية، ونحن هنا ندمج جمعاً من كل من المعلومات، والإذن، والفرصة، لربط الذات والغير والسرنديبية. ولزيادة التمحيص لعملية النصح في ظل الافتقار الثقافي في سياق فيجوتسكي، سنتوقف هنا للتأمل في ربط هذا الأنموذج بخبراتنا المباشرة بالإرث الفيجوتسكي.

لقاء سرنديبية للعقول: تأملات كل من Le and Ann

لقد أصبحنا مُدرّكين أكثر فأكثر بأهمية النصح بوصفه أحد مظاهر التوسّط بين التعلّم والنمو. العملية التربوية لا تحقّق منتهاها؛ وذلك بسبب تحوّلها عندما نلتقي بمن هم أكثر منا خبرة. وكما سبق أن وضحنا فكرة الزميل الأكثر مهارة الذي قد يتغير في الأوضاع والمواقف. تطوّفتنا هنا كان نوعاً من التعليم المتبادل، برغم عدم معرفتنا بذلك التحوّل منذ البداية. في رحلتنا الخاصة هنا بدءاً من شهر أغسطس من عام

1991م، حيث تخرجت زميلتي Joan للتو في ذلك العام، وبدأت عملها أستاذة مساعدة، حديثة العهد بالبحث، وإعداد دراسة الدكتوراه. وصلت ضاحية صغيرة قبل بدء الدراسة بأسابيع محدودة لترتيب سكنها الخاص. كنت عائدة للدراسة العليا، لأتدبر تغيير في مهنتي، وأنا مصممة على العودة إلى جذوري التربوية. لكن تلك العودة لم تكن سلسلة على الإطلاق. قضائي ثلاثة عشر عاماً أدرّس فيها اللغة الإسبانية انتهت، ما جعل عندي تصوراً عقلياً لعودتي للمستوى الثانوي بدلاً من تثبيط همّتي. درستُ بعلم مشرفتي إحدى المواد الدراسية التي حذرتني مُدرّستها منذ البداية من أن «أحدد أولاً ما أريد فعله قبل إكمال دراسة درجة الماجستير». وقامت بإرسالتي إلى رئيس القسم لعل وعسى أن أعثر على برنامج يلبي احتياجاتي.

لم أكن على علم بما يجري آنذاك. فبدلاً من نصح مرشدتي لي قامت بإحالتني إلى غيرها. وحددت لي موعداً عن طريق السكرتيرة لأقابل رئيس القسم في اليوم اللاحق. عدت إلى سكني في ذلك اليوم وأنا أفكر في الانسحاب وفي عدم مواصلة الدراسة تماماً. ذكّرني زوجي بحكمة مفادها: بأنها ليست المشرفة الوحيدة، وأن الجامعة ذاتها ليست الوحيدة التي تتيح الفرصة للدخول فيها. وقرّرت حينها أن أعطي نفسي فُسحة أطول.

ذهبت في اليوم اللاحق إلى القسم حسب الموعد المضروب لي، وكنت حينها لا أزال أشعر بأنني تعرّضت لتأنيب من عملي. بمجرد أن دنوت وقدمت نفسي في المقابلة، وجلست بجوار مكتب رئيس القسم العلمي، بدأت حينها تلك الذكريات التي مرّت بي عندما تم إرسالتي لناظر المدرسة تجول في خاطري. لا بد أن رئيس القسم اكتشف ما أشعر به أنا من ضيق؛ لأنه استمع إلى كل ما قلته في عناية تامة، وبعدها تبسّم ابتسامة ظريفة فيها شيء من مرارة.

لحظتها قال لي: «عرفت تماماً ماذا تودّين فعله». وأردف متسائلاً وهو يسجّل رقم الهاتف: «تعاقدنا مع دكتورة خريجة حديثاً، وقد وصلت قريباً إلى البلدة. ستقوم هي بالتنسيق لعمل برنامج للقسم عن التعليم متعدّدة اللغات والثقافات. لماذا لا تحاولي الاتصال بها؟».

قلت متسائلة في ذهول: «أتصل بها في المنزل؟».

وأجاب قائلاً: «بالتأكيد لقد قالت: إنَّ أحدَ احتاج إليها، فعليه أن يقوم بالاتصال بي».

قلت له وأنا أتمتم ساعة مغادرتي مكتب رئيس القسم بعد أن شكرته لمساعدته واتَّجهت للمنزل: «حسناً، هذا شيء رائع». وتذكَّرت حينها وأنا أغادر الباب، وأنا أسمع هاجساً يقول لي في نهاية المرر بشيء من الحماسة: أيقنت الآن أن تلك الدكتورة ستكون مختلفة عن كل الذين التقيت بهم.

قامت Joan على عجل بتلخيص البرنامج الدراسي الذي يتوافق بالضبط مع ما أسمى لتحقيقه. لم يكتسب البرنامج صفة الرسمية بعد، لكنهم يسعون في جعله ساري المفعول، وسيتم إكماله مع الوقت عندما أخرج في الجامعة خلال عامين من ذلك التاريخ. قُمتُ في حقيقة الأمر بتغيير مشرفتي، ولم أنتظر حتى آخذ محاضرتي الأولى من مرشدتي الجديدة.

في الليلة الأولى من دراستي نظمت الفصل وهيأته للدراسة. قمنا (أنا ومشرفتي) بتكوين معرفتين معاً. توزيعها لأوقات المحاضرات لم يكن مشابهاً لما سبق لي رؤيته قبل ذلك. كان لدي الكثير من الأسئلة، وقد كانت قائمة القراءة مكثفة لكنها ممتعة. كان عليّ كتابة يومية، وهي سوف تقوم بقراءتها! وتلك الخبرة التي نسيت نفسي فيها.

في ذلك السياق، كانت Joan المعلمة، والطالبة Le Ann مُرتبكة، في أول درس لها في دراساتها العليا، الذي وضعت كل تركيزها فيها على فيجوتسكي. كانت Joan الناصحة والطالبة Le Ann هي الدارسة.

كتبت Le في يوميتها لمعلمتها في الخامس عشر من سبتمبر 1991 م .

قمت بقراءة المتطلبات في هذا الفصل وأنا مرتبكة، وعلمت بأنني لم أكن على اطلاع بأي من المفاهيم أو المصطلحات المدونة في حينها. من يكون فيجوتسكي؟ أي منطقة من النمو؟ تحدّث عن الخبرة التعليمية - كان ذلك أولاً.

ردّت المعلمة Joan على ما كتبتة في يوميتها.

هوّني على نفسك، وتحمليني، وتحملي فيجوتسكي. سنسوي الأمر معاً.

وكتبت ثانية في يوميتها في الخامس عشر من أكتوبر 1991 م .

تركت التعليم لقناعتي بأني غير مُنتمية له. عدت ثانية لمعرفةي بأن الصغار لا يتعلمون ما يريدون تعلّمه. تعلّمنا في هذا الفصل بوجود ثلاثة مبادئ مهمة، وهي التي تُطبّق في المدارس، وهي لربما تساعدهم في تعلّمهم. إلا أن ما هو مطلوب مني عمله بدا غريباً بالنسبة لي. يفترض منا عمل رسم تقويمي تخطيطي لطالبين - فالأمر غامض عندي-. أجابت المعلّمة Joan عن تساؤلاتي.

أنت تحقّقين تقدّماً. راقبي الصغار بعناية، وفكّري في المبادئ الثلاثة الأساسية وأنت تقومين بالمراقبة. اكتبي كل شيء في مقالتك من قبيل: هل هما يتعاونان؟ وما الدليل على تعاونهما؟ هل هما يحلان ما يعترضهما بطريقة هادفة؟ ما نوع العلاقة بين حديثهما وتفكيرهما؟ كتبت Le رداً على تساؤلات معلّمتها.

لقد عدت لحقل التربية لأقوم بعمل شيء مختلف. هذا المقرّر في بدايته يُظهر لي كيف أتمكّن من عمل شيء كهذا. ما زال أمامي الكثير لأتعلّمه، لكنني عندما سمعتك تتحدّثين في القاعة، شعرت بأني في فصل ذي لغة غير مفهومة بالنسبة لي. لقد بدأت أفهم المفاهيم من ذاتي. التفكير واللغة : كما تعلّمت هذين المفهومين من الكتاب المقرّر، إن ذلك حقاً مؤثّر في تفكيري. السياق الثقافي التاريخي : أدرك أن سياق هذه القاعة له أثر كبير في تعلّمي. منطقة النمو التقريبي : إننا نقوم بشيء مثل هذا في كل أسبوع.

كتبت Joan رداً على ما سبق.

ينبغي عليك أن تكتبي مقالاً علمياً عن فيجوتسكي.

تلك كانت البداية لعلاقة النصح - أو التمدرس بيننا - . سجلت مع المعلّمة Joan نفسها عدداً من الساعات. وبعدها بزمن قصير أصبحت الطالبة الأكثر كفاءة بالنسبة لبقية طلاب الدراسات العليا في مستواها. لاحظت وجوه الدارسين مُستغربة طريقتها

في البداية. عرفت حينها أنهم يفكرون في الاقتناع بتوزيع المحاضرة. شعرت في لحظة بخبرة يشوبها الذعر، معترفة بأنني سأكون مسؤولة بدرجة أكبر في تعلّمي أكثر مما كنت أتصوّر من ذي قبل. قد يكون الأمر مُخيفاً بعض الشيء أن ينسى الفرد ما يتعلّمه أكثر مما يتخيّله أي أحد منا، ويصدق ذلك الوضع مع أولئك ذوي الخبرات التربوية التقليدية المُعتمّدة على الاستظهار. سمحت المعلّمة ببضع دقائق للحصول على بعض الكتب، وقد كان السؤال الأول من الجماعة المُستثارة كما يلي « جيد، من درس مع هذه الدكتورة من قبل، وهل هي جادة في تطبيق ما حول ما نقوم به؟ ». سأحدّث بكل ارتياح عن المحاضرات السابقة، للتأكيد لهم أنهم ليسوا فقط سيعرفون ما هو مطلوب منهم، بل إنهم سيحبون ما يدرسون في النهاية. وأخبرتهم أن يواصلوا في المحاضرة لمدة خمسة أسابيع، وليقرّروا بعدها فيما لو رغبوا في حذف المادة. ولم يفعل ما اعتقدته إلا طالب واحد.

الافتراضات بخصوص المعلّم الخاص تعرف في الغالب على نطاق محدود. نحن ننظر لذلك الناصح تقليدياً على أنه مدرّس. إضافة إلى اعتبار الطالب المعتمني بمهنته بأنه طالب. ونحن نُعدّ تلك الأدوار أنها جامدة محدّدة. لكن ذلك التفسير لدي كان قبل لقائي بتلك المعلّمة والحديث عن فيجوتسكي ومجهوداته. لقد تم إعادة تعريف المبادئ الثلاثة وتوسيع أدوارها عدة مرات بعد ذلك.

تأملات Le حول يومياتها تتواصل

وبعد مضي عام، لا تزال الطالبة تدرس مقرراً آخر لدى معلّمتها Joan. في هذه اليومية الافتتاحية، من السهولة ملاحظة أن تعلّم المتعلّمة كان بداية تحولات نحو اتجاهات متعدّدة.

كتبت Le في يومياتها لشهر مارس 1992م.

تؤكد المقالة اليومية هذه أن الطالب الذي يتحوّل بناءً على ما يتوقّعه منه المعلم لا يعدّ تفكيره تفكيراً ناقداً. تلك النوعية من الطلبة لا يسألون لماذا؛ لأنهم يُكرّرون كالبيغاء ما يُلقّي عليهم معلّمهم وما يتوقّعه منهم، ليصل صدى ما ألقاه عليهم. لقد صُغت. فكرت أنني أتقدم بشكل جيد، وكنت كل الوقت أمر بسرعة وخفة على ما هو خارجي.

لقد تحصّلت على درجات حسنة، لكنني لم أتعلّم كيف أسأل عما هو واقع أمامي. كيف بالمقدور الذهاب أبعد من ذلك بخصوص عمليتي التربوية، ولا أعدّ طالبة جيدة؟

لقد وضعت ذلك كله في ظهر المدفأة لبعض الوقت، لكنها فجأة برزت تجاهي عندما ذكرت لي أنني أقوم بأداء أشياء رائعة، مختلفة تماماً عما تحدّد! في محاضراتك لقد تمكّنت حقا من الخروج على فرع خارجي limb كي أكتشف ما هو مهم لي وذو صلة بي.

ردّت معلّمها Joan بما يلي

ابقي على ذلك الفرع! بالمناسبة هل ما زلت راغبة في الحصول على درجة الدكتوراه؟ تلك كانت الشرارة التي أطلقت كامل القصة. منذ سنتين مضت، حين أبلغتني مشرفتي الأولى بأنني غير مُهيأة على الإطلاق لإكمال برنامج الماجستير. فيما يخصّ أنموذج الاقتدار الثقلي في علاماتها المثبّطة لي كانت كافية بذاتها لغلّق الطريق عليّ لكل من إمكانية الوصول والفرصة بالنسبة لي لإكمال ما أريد. إلا أن الحفز الذي لقيته من قريبي الذي كان يعتقد في أنه بإمكانه عمل شيء، وجاء الحل من جانبي لما يعترضني وقتها، كنت مُنفتحة للحالة السرديبية لمقابلة شخص وهو من وافق طواعية وفي لهفة كي يفتح لي المجال بالإذن، وإتاحة الفرصة لما كنت أبحث عنه.

موهبة اكتشاف الحل (السرديبية) كانت قائمة في ظل وجود كل من المعلومات والإذن أو حرية الوصول والفرصة المتاحة في ذلك السياق. معلّمتي تنصّحني حالياً بأن أستمّر في دراسة الدكتوراه. انضمت لبرنامج الدكتوراه في جامعة كاليفورنيا University of California, Santa Barbara وفيها التقيت بمعلّمتين ناصحتين أخذاني لمسارات أخرى من أعمال فيجوتسكي. هما Judith Green and Carol Dixon وهما قد أسستا لمشروع جماعي يتكوّن من دكاترة، وطلاب دراسات عليا، ومدرسي فصول محلية، وهم كذلك زملاء في مشروع بحثي للكتابة، موقعه الساحل الغربي لأمريكا South Coast WRITING Project.

وما إن التحقت بالبرنامج الجامعي في جامعة كاليفورنيا حتى واجهت طريقة بحثية أدت إلى تحقيق ما أطمح إلى عمله، وأدّت كذلك تلك الطريقة إلى تعميق منظوري الفلسفي.

وتعرّفت هناك أيضاً على مشروع بحثي جماعي كان المرشدون والمبتدئون فيه داعمين معاً ويُفيد بعضهما بعضاً بشكل مستمر، وخلال فترة عمل كل من المرشدين والطلاب المبتدئين جميعاً. لقد كنت أقوم بإجراء دراسة وصفية مع نخبة مُميزة، ووظّفت معلوماتي وخبرتي عن نظرية فيجوتسكي لتوضيح ما هو قائم في الصف الدراسي، وفيه نقوم ببحثنا عن الطلاب والمدرّسين. بينما كنت أقوم بالعمل على رسالتي في مرحلة الدكتوراه، علاقة النصح مع معلّمتي تبلّورت إلى درجة أنني أرسل لها بريداً إلكترونياً. لـ «مواكبتني لذلك» عبر الرسالة الإلكترونية، فإنني أفسّر مجهود فيجوتسكي لنفسني في الوقت الذي تقوم فيه معلّمتي Joan بمقابلة ذلك التأويل بآخر للمجهودات نفسها. مبادئ فيجوتسكي عن التفكير والتخاطب كانت سائدة من خلال الوسط الإلكتروني بيننا.

بعد مرور سنوات: النصح مستمراً

برغم كوننا معاً، بعد مرور سنين، ما زلنا معاً على موقعينا نفسيهما، لكننا على الفرع ذاته. أدوارنا تغيّرت، وخبراتنا تنوّعت، وتشكّل سياقنا الثقافي التاريخي؛ العالم جميعه اعتراه التغيّر. وبالتالي فيما تبادلناه من مكاتبات خلال عقد مضى، تبين لنا أن وظيفة كل منا كانت مرنة وسلسة، بناءً على السياق الذي كنا نتعامل فيه. كما أنه لا وجود لحدود مقيّدة للأدوار في علاقات تناصحنا، فكلانا كان قادراً على النماء فكرياً عبر جهودنا التعاونية المشتركة معاً، وأدّت تلك الجهود إلى فهم أعمق من النصح. وبسبب أن مسلماتنا سمحت لأدوارنا بالتغيّر والتطور لنطاق القابليات لكل فرد منا، التي كانت ولا زالت لا نهائية (غير محدودة).

الإصلاح في سياق ما ليس بمضمون أن يؤدي الدور نفسه في سياق آخر. في أي علاقة نصح، هناك نوع من العلاقات التوالدية بين النصح والتّمدّس أو كون الفرد مبتدئاً، مثل ما بين المعلّم والمتعلّم. هذه العلاقة الديناميكية تبادلية، اعتماداً على السياق الثقافي الاجتماعي. كما أننا نتفكّر في هذا الفصل الختامي، عرفنا كيف أن العلائق الفيجوتسكية لكل من الناصح- المبتدئ يمكن أن تترابط لتضيء الشمعة، كما سبق أن قدّمت (1997) John-Steiner اقتراحها أن كلاً من المعلّم - والناصح يتوصلان للومضة أو للشرارة؛ وهي التي تكون لدى المتعلّم / المبتدئ غير محدّدة، أو هي مُبهمة، ولا يمكنه السيطرة

عليها. يقوم المبتدئ في المقابل بالوميض أو قرح الشرر نحو المُصلح الناصح كنوع من التعاون الفوري، ويقوم الناصح بتعميق المنظور حول القضية التي يعالجانها معاً.

لقد واصلنا مُجتمعتين، بطريقتنا المميّزة هنا، من أجل بناء مجهودينا التعاونيين الذي تعود في بداياتها إلى أول فصل من الدراسات العليا. إلا أن مناقشاتنا وعلائقتنا التعاونية تعرّضت لتغييرات إلى حد بعيد. على مدى السنوات الأربع المنصرمة تبادلنا توزيع محاضراتنا syllabi عبر بريدينا الإلكتروني، استخدمنا أساليب تمطير التفكير (العصف الذهني brain storming) لتوظيف استخدام الدرجات وفق عقود في فصولنا المعينة. قمنا بكتابة يومياتنا معاً نتداولها في كمبيوتر واحد في مدينة Turlock. ربّنا لكتابة المقالات معاً، مستخدمتين كمبيوترينا المحمولين كما استخدمناها على طاولة الطعام في ولاية Las Vegas. عملنا معاً في غرف الفنادق في أوقات المؤتمرات، كما قمنا بالإعداد لكتابة فصل من كتاب معاً في أحد أشهر الصيف مستخدمتين البريد الإلكتروني، كانتا Le في ولاية لاس فيجاس Las Vegas و Joan في ولاية South Dakota. لقد كانت رحلتنا زاخرتين، ومليئتين بالتعاون، وغالباً سعيدتين، ولم تكونا مملتين لكينا بأي حال.

بينما كانت علاقة النصح بيننا مستمرة، أقمنا أعمالاً إصلاحية في مجالات تربوية مع بعضنا. العلاقات المترابطة بين كل من التلاميذ والمعلمين والزملاء تضيف لعملية التعلّم على الدوام. ويبقى عمل فيجوتسكي أساساً لما نقوم به معاً. فكما هو وضعنا عند تسطير صفحات هذا الكتاب، مناقشات LeAnn مع زملائها، مقترحة أنموذج، Nancy Gallavan، الذي آل بها إلى تضمين حالة السرنديبية لأنموذج الاقتدار الثقافى. خلال حديثهم معاً في الجامعة، كانت تعمل Nancy من خلال خبرتها عن التنوّع الثقافى على إعطاء معنى لنظرية فيجوتسكي كما تفهمها وتقوم بشرحها LeAnn. دراسات فيجوتسكي تعيد صدى جهد Nancy النابعة من خبراتها وملاحظاتها لفصلها الدراسي، الذي استمدت منه هذا الأنموذج. وفي شرحها لهذا الأنموذج قامت LeAnn بإعطائه معنى من خلال خبراتها وعملها مع معلّمتها Joan.

تعرفنا في حقيقة الأمر أن عملية Nancy لكي تفهم أعمال فيجوتسكي تعدّ مثلاً
لكيفية تأكيد جهد (2000) Joan-Steiner للعلاقات المترابطة والبناء الاجتماعي كنوع
من الإتمام، أو الاختلاف المبدع للأفكار عن عدد من المنظورات. فمن خلال مناقشاتنا،
أدركنا تكامل رؤانا. وبناء عليه فقد تم تقديم الأنموذج السالف ذكره ضمن السياق
الفيجوتسكي بهذه الطريقة:

- أولاً، المكوّنات من معلومات، وحرية الوصول، والفرصة التي تلائم المبدأ التربوي
لفيجوتسكي المتكوّن من الفكر، واللغة، والخبرة مقدماً معلومات عن المعرفة.
- ثانياً، المصادر ذات التأثير في هذه المكوّنات تشارك في سياقنا الثقافي التاريخي،
مُقترحة إذن الدخول أو المدخل.
- ثالثاً، في منطقة النمو التقريبي في وسعنا إحاطة المخرجات التي غدت مُمكنة من
خلال الفرصة للتوصّل إلى حل للمشكلة مع الغير، وبهذا يمكننا التحرك فيما يتعدّد
علينا القيام به في يومنا هذا، أو في حالتنا الراهنة، في حاضرننا؛ أي: في وضع (الضوء
الأحمر)، إلى ما يمكننا عمله، عن طريق مساعدة الغير؛ أي: في وضع (الضوء
البرتقالي)، وحتى الاستقلالية التامة في حل المهمة المطلوبة؛ أي: في وضع (الضوء
الأخضر)، كما حدث أن شكّلنا وحوّرننا وتعلّمنا. الربط بين هذه المفاهيم يُوسّع تفكيرنا،
ويُعيننا على تطبيق الأفكار في أوضاع مُتعدّدة، وتحت مُلابسات مختلفة الوقوع.

بتأمل ما سبق عرضه من اقتباس لـ (John-Steiner, 1997) في بداية الفصل، رأينا
أن خبرة النصح لفيجوتسكي في واقع الأمر تحوّل المبتدئ ليكون مفكراً خبيراً. كتبت
LeAnn منذ سنوات «من هو فيجوتسكي؟». وكتبت قريباً في أحد رسائلها الإلكترونية لـ
Joan ما يلي:

إن التعلّم والنمو عمليات محبوكة تبادلياً وديناميكياً، وتحدثا بطريقة منتظمة أو
تصادفية، وفي أوضاع عديدة يصعب علينا حصرها، وواحدة من تلك الوضعيات كانت في
الفصل الدراسي. حتى نتكّن من فهم ما هو مُتاح لكي نعرفه وكيف يتشكّل، يجب علينا
تفحص ما يحدث في المجالات بين الذاتية intersubjectivity spaces كما يقوم المشاركون

بالتفاعل مع بعضهم. لنتمكن من التوسّع في فهم فكرة ما بين الذاتية، لقد قمت بتلخيص قائمة من المفاهيم التي يمكن أخذها معاً، وهي تعطي نظرة مُركّبة في عمليات وممارسات الفصول الاستطردية (التفصيلية): النص المتبادل، السياق المتبادل، والتعاقبات المتلاحقة. أجابت عليها Joan برسالة إلكترونية أخرى.

لقد ذهبت بعيداً من حين سؤالك عن من يكون فيجوتسكي؟ وتُرى ما الفارق بين النص المتبادل والسياق المتبادل، وكيف سيتذكّر القراء ذلك؟

أجابت LeAnn بما يلي:

حسناً Joan فقط تخيّلني لو أننا كنا مسافرين معاً إلى مدينة نيويورك. وأنت لم تلحقي بالرحلة، لكنني لحقت بك والتقيتك في اليوم اللاحق ...



الخلاصة Conclusion

أملنا معاً (بوصفنا مؤلفتين)، فيما يخص قُرّاءنا، أن يكون من الواضح بعد كل هذا العرض أن إرث فيجوتسكي ليس نظرية لنا فحسب. إنه ما تم مُعايشتنا له بوصفه وضعاً قائماً بالفعل. المُصلحة Joan مُستمرة منذ أكثر من عقد من الزمان، وبصفة دائمة تعيد التفكير، وتُعيد البحث، وتُفكّر بعقلانية في المبادئ والممارسات كما تفترضها متعلّمتها المبتدئة، LeAnn، التي نشّطت، ووُسّعت، وحوّلت تصوّراتها التربوية. مفهوم الناصح لدى فيجوتسكي تبادلي كما هو لدينا. لقد توصلنا من خلال فيجوتسكي لمعرفة أن خبراتنا ذات أهمية في تعلّمنا، وهذه الخبرات تنعكس في كل من لغتنا وفي فكرنا جميعاً. والسياق الثقافي والتاريخي لكل من المتعلّم والمعلّم بحيث تُصبح منطقة نمو وشبكة (قريبة) متشكّلة لدى المشاركين النشطين كليهما عبر تلك الخبرة التوليدية.

نحن نرى أن توالدية الناصح- المتلمذ بمنزلة تلك التوالدية المتكوّنة بين المتعلّم والمعلّم. فمن خلال الاستخدام المجازي لقطرة الماء تلك المعاني التي بدت مُتعارضة قد توحدت معاً. كما هي العلاقات بين التعليم والتعلّم تتطوّر، الاستقصاء أو البحث هو المبدأ الذي يوحد بين كل تلك العلاقات.

كتابنا هذا كان عن مدى أهمية التعليم والتعلّم والنمو من منظور فيجوتسكي. لقد نمونا بطريقة مُختلفة ومُذهلة من خلال سياقنا الثقافي. تطوّرنا أهلاً لمكانة كنا فيها آباء

في تعلمنا وتعليمنا. في كثير من الأحيان نحن معلمون، ممارسون، دكاترة، باحثون، لكننا على الدوام نعلم، ونتعلم، وننمو.

قد يكون مثل هذا الكتاب عن أفكار جديدة وبلغة جديدة. لكننا نذكرك أن تلك الأفكار مؤسّسة على أفكار توليدية راسخة. أفكار فيجوتسكي لها إرث طويل عدنا لها ببساطة لكي نصغي إلى صوت من الماضي يقودنا نحو المستقبل. فكرة الناصح عن فيجوتسكي يمكننا توضيحها بالمقتبس الآتي عن التلمود (Yeager, 1999)

To look is one thing. أن تنظر لشيء فهذا يعني أمراً واحداً.

To see what you look at is another. لترى ما أنت تنظر إليه شأن آخر.

To understand what you see is a third. لكي تفهم ما أنت تنظر إليه أمر ثالث.

To learn from what you understand is still something else. لكي تتعلم مما أنت تنظر إليه يبقى شيئاً مختلفاً.

But to act on what you learn. ولكن أن تعمل بما تعلمته ذلك هو أمر في غاية الأهمية.

is All that you really matter^(*).



(*) ما دام الحديث عن العلم والتعلم، وكذلك عن عمليات النمو والنشطة والديناميكية فقد ذكر ابن قيم الجوزية

في مفتاح دار السعادة، ست مراتب للعلم هي كما يأتي:

١- مرتبة حسن السؤال.

٢- مرتبة حسن الإنصات.

٣- مرتبة حسن الفهم.

٤- مرتبة حسن الحفظ.

٥- مرتبة التعليم.

٦- العمل به ومراعاة حدوده.

وهي في مجملها تفاعلية وتعاونية معاً.